﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النّساء: 17 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

عـلاقـة معاقبة أصـــحـــاب الـفـواحـش، بالتّذكير بالتّوبة وشـروطـهـا ومآلاتها

لَمَّا ذكر تعالى عقوبة الفحشاء للمحصنين بالزّواج، وغير المحصنين من العزّاب، وختمها بالتّقرير بأَنَّ التَّوبة مع الإِصلاح، تحمي صاحبها من العُقوبة في الدُّنيا، لأنّه تعالى توَّاب رحيم، وهو ما كان منصوصًا عليه في بداية التّشريع الّذي انتهى بتقنين الحدّ الشّرعيّ لكلّ حالة، عَقَّبَ ذلك ببيان شروطِ قَبول التَّوبة من العاصين الّذين يبادرون إلى المتاب، ويسارعون إلى الإياب، فيتوب الله عليهم بفضله، ويمحو سيّئاتهم بعفوه، وليست التّوبة للمتواكلين الّذين يخوضون في المعاصي، حتّى يداهمهم الموت، فيعلنون التّوبة عند الخوف من الممات، واليقين بالوفاة، فأولئك لهم سوء العقاب، وأليم العذاب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: هو عيبٌ أو نقصٌ من قُبحٍ أو فسادٍ أو مرضٍ يخالطُ ظاهرَ الشَّيء أو باطنَه، فهو اسمٌ جامعٌ للآفات والدَّاء، وكلُّ كلام أو فعلٍ قبيح وشائن، هو سُوء، يُقال: رَجُلٌ أَسوَأُ، أي: قَبيحٌ، وامرأَةٌ سَوآءُ، أي: قَبيحةٌ، ولذلك سُمِّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسمِّيَتِ النَّارُ سُوأى؛ لِقُبحِ مَنظرِها، والسَّيء نَعتٌ للذَّكَر من الأَعمال، والسَّيئة للأُنثى،

وكلُّ (سُوء) في القرآن هو الفعلُ القبيحُ[1]، والاسم السّوء، بالضّم، وقُرئ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التّوبة: 98]، يعني الهزيمة والشّر، ومن فتح، فهو من المساءة، وتقول هذا رجل سوء بالإضافة، ثمّ تدخل عليه الألف واللّام، فتقول: هذا رجل السّوء، قال الفرزدق:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا *** بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ[2]

وفي تفسير الغريب لابن قتيبة قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: 32]، أي قبح هذا الفعل فعلا وطريقا، كما تقول: ساء هذا مذهبا، وهو منصوب على التّمييز، كما قال ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النّساء: 69][3]، والسُّوء في هذه الآية يعمُّ الكفرَ والمعاصي[4]، وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي يقع منهم ما يسيء، من غير أن تُرْكَس نفسه في السّيئات وتحيط بها[5].

2) ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: أصل الكلمة جَهِلَ، وتدلُّ الكلمةُ على معنى خلوِّ الباطن (ممَّا يفيدُ أو يُطلب) مع جفافٍ، ومنه ناقةٌ مجهولةٌ: لم تُحلَب قطّ، وأرضٌ مجهولةٌ: لا أعلامَ بها ولا جبالَ، ومنه الجهلُ الّذي هو نقيضُ العِلم؛ لأنَّ الجاهلَ خالي الذِّهن من المعلومات، وكلُّ شيءٍ جهلتَهُ بمعنى لم تعرفْهُ، والجَهالة: أن يَفعلَ فعلًا بغير علمٍ[6]، والجَهالَةُ في الآية بمعنى فعلَ فِعلَ الجُهَّالِ أو جَهِلَ العقوبةَ[7]، "والجاهل يذكر تارة على سبيل الذّمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيله، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: 273]، أي من لا يعرف حالهم... قلت: والجهل على قسمين: بسيط ومركّب، فالبسيط: عدم العلم عمّا من شأنه أن يعلم، والمركّب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، قاله ابن الكمال"[8].

3) ﴿حَضَرَ﴾: الكلمةُ تدلُّ على إيراد الشَّيءِ ووُرُودِه، ومُشاهَدَتِه، ومُعاينتِه، والإحضارُ بمعنى إيرادِه ومشاهدتِه عيانًا، والحَضَرُ خلافُ البدوِ؛ لورودهم حول المناهلِ فيجتمعونَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سوء).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/24.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1613.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(7) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/586.
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).

ويقيمونَ، والحضورُ اسمٌ لشهادةِ مكانٍ أو إنسانٍ أو غيرِه معَ معاينةٍ له[1]، ومعنى حضرَ الموتَ، هو وقتُ النَّزعِ ومُعاينة مَلَكِ الموت[2]، وفي استعمال لفظ ﴿حَضَرَ﴾ للدّلالة على وقوع الأجل بالقدر، إيحاءٌ بسلطان الموت الّذي يحضر في كلّ حين، ويباغت البشر أجمعين، وأنّه حاضرٌ باطّراد، حضورا مفروضا لا فكاك منه، ولا منأى عنه.

4) ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أصل الكلمة عَتَدَ، بمعنى هَيّأَ وأَعَدَّ، والعَتَادُ: الشَّيءُ الَّذي تُعِدّه لأمرٍ ما وتهيّئُهُ له بحيث يكونُ حاضرًا وقت الحاجة إليه، وعليه يدورُ معنى (عَتَدَ) ومشتقّاتِها، وَحكى يَعْقُوب أَن تَاء أَعْتَدْتُهُ بدل من دَال أَعْدَدْتُه، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، قَالَ الشَّاعِر:

أَعْتَدْتُ لِلْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَرْزَنِ[3]

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ بمعنى هيّأنا وأَعددْنا، فالعذابُ الأليمُ حاضرٌ للكافرينَ، والمعنى في السّياق: " أولئك الّذين تابواْ في غير وقت قبول التّوبة، هيأنا لهم عذابا مؤلما موجعا بسبب ارتكاسهم في المعاصي وابتعادهم عن الصراط المستقيم الذي يرضاه سبحانه لعباده"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّوبة للمسارع إلى النّدم قبل الـــفـــوت، لا لـلـمـصـرّ على الـكـفـر حـتّـى يدهمه الموت

إنَّما يقبلُ اللّهُ التَّوبةَ مِنَ الَّذينَ يَرتكبونَ المعاصيَ، لجهلٍ منهم بسوء عاقبَتِها، ومغبّة ارتكابها، ثُمَّ لا يلبثون أن يرعووا عن فعلتهم، ويسارعوا إلى التّوبة النّصوح، في ندم وإخبات، فيجدون اللّه العليم بطواياهم، والمطّلع على نِيَّاتِهم، حكيما في معاملتهم، قابلًا لتوبتهم، وليست التَّوبة مقبولة من المصرّين في عناد وغرور، على ارتكاب المعاصي، والمجاهرة بالفجور، حتّى تدهمهم سكراتُ الموت، وينزع عن أعينهم الغطاء، ويكون البصر – آنئذٍ – في غرغرة الموت

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حضر).

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/93.

(3) ابن سيده، المحكم: (عَتُدَ)، ورد الشّطر الثّاني برواية أخرى:
أَعْتَدْتُ لِلْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَزْرَقِ
ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 3/278.

(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 3/88.

حديدًا، فيندم أحدُهم، ويقول: إنّي تُبتُ الآنَ، ولات حين مندم، إذْ لا مجال للتّوبة حيث يُغلقُ بابُ التّوبة على العصاة، ويُسدُّ المجالُ على الكفرة العتاة، لأنّ الله أمهلهم في الدّنيا، فكفروا به، وأصرّوا على عصيانه، فأعتد لهم عذابًا أليمًا، سوف يصطلون بناره، ويتألّمون من آثاره.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾:

الْبِشَارَةُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ

في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقد جاء طريقُهُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾، وهذا الأسلوب أفاد نكاتٍ:

أوَّلُهَا: أنَّ قبولَ التّوبة مِن الله تعالى ليس على إطلاقه كما يُنبِئُ عنه وصفُه تعالى بكونه تَوَّابًا رحيمًا، بل هو مقيّدٌ بِمَن يَعملُ السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يَتوبُ مِن قريبٍ قبلَ الموت.

ثانيها: لمّا كانَ القصرُ هنا مفيدًا تخصيصَ التّوبة بالّذين يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ؛ دلّ على أنّ توبةَ مَن عدا هؤلاء بمنزلة العدَم، فهو قصر إفرادٍ؛ جيءَ به لِدفعِ توهّمِ أنَّ غيرَ هؤلاءِ قد تشملُهم التَّوبةُ.

ثالثُها: أشعرَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ قبولَ الله تعالى التَّوبة مِنَ الّذينَ يعملون السُّوء ثمّ يتُوبون مِن قريبٍ أمرٌ واضحٌ جليٌّ[1]، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ موضوعةٌ في الأصلِ للأمر الذي لا يجهلهُ المخاطَبُ ولا يُنكِرُهُ، وكأنَّه أمرٌ معلوم لكلِّ سامع، أو هو ممّا يَنْبَغِي أن لا يكونَ مَجْهُولًا، فينبغي لكلّ سامعٍ أن يتلقَّاه بالقبول، وفي هذا بِشارةٌ بِقَبُول توبةِ مَن يعملُ السُّوءَ، ثُمَّ يتوبُ مِن قريبٍ.

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 330، والسّكّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 295.

رابِعُهَا: فيه تعريضٌ[1] بذمِّ الّذين لا يتوبونَ من قريبٍ لِغَلَبَةِ الهوى عليهم، فهم لا يَستحقّونَ التَّوبةَ، ولا يقبلُها اللّه تعالَى مِنْهُم.

دِلَالَةُ ﴿عَلَى﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إِيجَابُ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ قَبُولَ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ هُوَ تَكَرُّمٌ وَتَفَضُّلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ دالٌّ في الأصلِ على مَعْنَى الاِسْتِعْلاءِ، وأفادَت ﴿عَلَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ على تحقُّق وقوع وعدِ اللّه سبحانه بقبول توبة التَّائبينَ، وذلك لأنَّ (على) تُستعمَلُ في معنى الإيجابِ، فتوبةُ اللّهِ تَعَالَى علَى من تابَ قبلَ موتِهِ توبةً مستوفيةً الشُّروطَ أمرٌ واجبٌ أوجبَهُ اللّه تعالى على نفسِهِ تكرُّمًا وتفضُّلًا، لا لاستحقاقِ العبادِ ذلكَ، كما قال ابن القيِّم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ *** هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ[2]

وفي سلوكِ مسلكِ الإيجابِ دفعٌ لِمَا قد يُتَوَهَّمُ أنَّ اللّه تعالى لا يقبلُ توبةَ مَن يفعلونَ الفاحشةَ، ومَن يكفرونَ به سبحانَهُ؛ لِشناعة أفعالِهم وقُبحِها، فأفادت ﴿عَلَى﴾ تحقيقَ الوعدِ بقبول التَّوبة لِمَن يتوبُ من قريبٍ قبل نزول الموت به.

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالْحَالِ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾:

كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ تَعَالَى؛ فَهُوَ جَاهِلٌ

﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بمحذوفٍ حالٌ مِنَ فاعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وقد أفادَ الحالُ تقييدَ قبولِ توبةِ اللّه تعالى على العبادِ، وأنَّ الّذين يتوبُ اللّه عليهم هُمُ الّذين يعملونَ السُّوءَ مُتلبِّسينَ بِجهالَتِهم بِعاقبةِ عملِهم؛ لِسفَهِهِم وتغلّبِ شهوتِهم، وفي هذا إشارةٌ

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 354، والسّكّاكّيّ، مفتاح العلوم، ص: 296.
(2) ابن القيّم، الكافية الشّافية، ص: 208.

إلى أنَّ ارتكابَ القبيح ممَّا يدعو إليه السَّفَهُ والشَّهوةُ حالَ ارتكاب الفاحشة، لا ممَّا تدعو إليه الحِكمةُ والعقلُ[1].

ولمّا كانَ عملُ السُّوء لا ينفكُّ عن تلبّسه بالجَهَالَةِ لِعَدَم جَرْيِهِ وفقَ العلم وَالحكمةِ والعقلِ؛ كان مجيءُ الحال كالوَصْفِ الكَاشِفِ لِعَمَلِ السُّوء[2]، وَوُصِفَ ارتكابُ الذَّنب بالجهالة؛ لِتَنْزِيل عِلْمِه منزلةَ الجهلِ لعدم جريهِ على مُقتضى العلم[3].

دِلَالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي إِمْهَالِ الْعَاصِينَ

أفادَ حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالُّ على التَّرتيب والتَّراخي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أنَّ التَّوبةَ قد يكونُ فيها تراخٍ عن فعل المعصية؛ لبيان رحمة الله بالعبادِ وفَضْلِهِ عليهم، معَ طلبِ المبادَرةِ إلى التَّوبة الّذي أشعرَ به قولُه تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِن﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلَّمَا بَادَرَ الْعَبْدُ إِلَى الـتَّـوْبَـةِ؛ كَـانَـتْ بِالْقَبُولِ أَحْرَى

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ تحتملُ وجهين:

أحدُهما: أن تكون لابتداء الغاية الزَّمانيَّة، أَي: يجعلونَ مبتدأَ توبَتِهم زَمانًا قَريبًا مِنَ المَعصيَة؛ لِئَلَّا يندَرِجُوا في زُمرَة المُصِرِّينَ على الذّنب[4].

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ وقتَ التَّوبةِ كلَّما قَرُبَ من وَقتِ اقترافِ الذَّنبِ؛ كان الرَّجاءُ بالقبول أَقوى، وهم بقبولِ التّوبةِ أولى ممَّن تابَ بعدَهم، وفي هذا: إرشادٌ إلى المبادرةِ إلى التَّوبةِ، لِئلّا يُشرَبَ في قلوبهم حُبُّ السَّيّئة فيتعذَّرَ عليهم الرُّجوعُ.

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/561.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/278.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/76.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7، ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/278.

وفيه إشارةٌ إلى تفاوت درجَاتِ التَّائبينَ على وَفْقِ أَقربيَّتِهم بالتَّوبة إلى الانتهاءِ مِن فِعْلِ السَّيِّئة، ويمتدُّ القُربُ إلى زمَنِ حضُورِ المَوْتِ؛ فكُلُّ قريبٌ ما دامَتِ التَّوبةُ قبل المَوْت.

والآخَرُ: أن تكون ﴿مِن﴾ لِلتَّبعِيضِ، والمعنى: يتوبونَ في أيِّ جُزءٍ من الزَّمان القريب الّذي هو قبلَ أن ينزلَ بهم سلطانُ الموت، كأنَّهُ سُمِّيَ ما بينَ وجودِ المعصيةِ وحضورِ الموتِ زمانًا قريبًا، ففي أيِّ جزءٍ تابَ مِن أجزاءِ هذا الزَّمانِ فهو تائِبٌ مِن قريبٍ، وإلَّا فهو تائِبٌ مِن بعيدٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقُرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُـلُّ مَـا هُـوَ آتٍ قَرِيبٌ

أَجمعَ المُفسِّرونَ على أنَّ المرادَ من القُربِ حُضورُ زَمانِ المَوتِ، وقد وصفَ اللّه تعالى هذا الوقتَ بأنّه ﴿قَرِيبٍ﴾ لِأوجُهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّ أجلَ العبادِ لَمَّا كان إتيانُهُ متحقِّقًا؛ جُعِلَ ذلك قريبًا؛ لأنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

ثانيها: التَّنبيهُ على أَنَّ مُدَّةَ عُمرِ الإنسان - وإن طالَت - قليلةٌ قريبةٌ، فإنَّها مَحفوفَةٌ بطرفي الأَزَلِ والأَبدِ، فإذا قَسَّمتَ مُدَّةَ عُمرِكَ إلى ما على طَرَفَيها؛ صار كالعَدَم.

ثالثُها: أَنَّ الإنسان يَتَوَقَّعُ في كلِّ لحظةٍ نُزولَ المَوتِ به، وما هذا حالُهُ؛ فإنَّهُ يُوصَفُ بالقُرب.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَرِيبٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُـلُّ وَقْـتٍ قَبْـلَ الْمَـوْتِ قَـرِيـبٌ بِـالـنِّـسْـبَـةِ إلى إِيقَاعِ التَّوْبَةِ فِيهِ

وردَت كلمةُ ﴿قَرِيبٍ﴾ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ نكرةً؛ لإطلاقِ وصفِ كلِّ الأوقاتِ الّتي قبلَ الموتِ بأنَّها قريبةٌ، ويصحُّ وقوعُ التَّوبة فيها؛ رحمةً مِنَ اللّهِ وفضلًا منه ﷻ.

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/489، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/562.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِقَبُولِهِ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ

دلَّتِ الفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قَوْلِه تعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ على التَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة؛ لِيكونَ عملُ السُّوءِ بجهالةٍ والتَّوبة من قريبٍ سَبَبًا لِقبول الله تعالى توبتَهم من غير تَرَاخٍ، بل يقبلُ اللهُ توبتَهم عَقِبَ إقلاعِهم عنِ الذَّنبِ -مع باقِي شروطِ التَّوبةِ- من غيرِ مُهلةٍ، فَضلًا مِنْهُ ﷻ ورحمةً.

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ (أُوْلَئِكَ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ التَّائِبِينَ

في التَّعبير باسم الإشارة (أُولَئِكَ) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ نكاتٌ:

أوَّلُهَا: استِحضارُهُم في الذِّهنِ عند الحُكمِ؛ لئلَّا يَخطُرَ في بالِ القارِئِ والسَّامِعِ إشراكُ غيرِهم معهم فيه[1].

ثانِيهَا: تنبيهُ المُخاطَبينَ على أنّ المشارَ إليهم هُم باعتبار مجموعِ الأَوصافِ المُتَقدِّمَةِ البالِغَةِ غايَةَ الخَوفِ مِنَ اللهِ تعالى والمُبادِرَة إلى طَلَبِ مَرضاتِهِ؛ لِيُعرَفَ أَنَّهُم أَحْرِياءُ بمدلول المُسندِ الوارِدِ بعد اسم الإشارة، أي: أَحْرِيَاءُ بتَوْبَةِ اللهِ تعالَى عليهم، فهو نَظيرُ بناءِ المُسْنَدِ على اسمِ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة: 5]، والمعنى: هؤلاء همُ الَّذين جعلَهُمُ اللهُ مُستَحِقِّينَ قَبولَ التَّوبةِ منهم[2].

ثالثُها: الإشعارُ برِفْعَةِ رُتبة مَن يتوبُ اللهُ تعالَى عليه، بما أَفادَهُ اسمُ الإشارة مِنَ البُعْدِ في المكانة والمنزلة.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، ورضا، تفسير المنار: 4/366.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/280.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمۗ﴾:

مَنْ تَابَ؛ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

أُكِّدَ قولُ الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمۗ﴾؛ تقريرًا لِتَوْبَةِ اللهِ على المذكورةِ أوصافُهم، وتثبيتًا لِلْمَعْنَى في النُّفوسِ، وتكريمًا لَهُمْ، وجاءَ هذا التَّوكيدُ في صُوَرٍ:

أوَّلها: مجيءُ الجملةِ اسميَّةً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمۗ﴾، وذلك دالٌّ على ثبوتِ مضمونِها ودوامِه واستمرارِه.

ثَانِيهَا: التَّعبير عن فِعْلِ التَّوبةِ بصيغة الْمُضَارِعِ؛ لإفادة تجدّد قبول اللهِ تعالى توبةَ التَّائبينَ؛ تأكيدًا وتقريرًا لِمَا دلّت عليه الجملة الاسميّة.

ثالثُها: مجيءُ خبرِ (أُولَئِكَ) جملةً فعليَّةً؛ لإفادة تقوية الحُكم، فإنَّ عَوْدَ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على (أُولَئِكَ) في حكمِ تكرارِ الإسناد[1]، والتَّقديرُ: يتوبُ اللهُ على أولئك، يتوب الله عَلَيْهِم.

وجاء إسنادُ الجملة الفعليَّة على أصلِ ترتيبِهَا، فقال سبحانه: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمۗ﴾ من غير تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى الْفَاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّ مدارَ السِّياق على قَبولِ الله تعالَى التّوبةَ، وبيانِ سعةِ رحمتِهِ بذلكَ، فناسبَ أن يبقَى تقديمُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لما تضمَّنه من صفات الجلال والجمال والكمال.

سِرُّ تَقْيِيدِ التَّوْبَةِ بِـ﴿عَلَىٰ﴾ أَوَّلًا، وَبِـ(اللام) آخِرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾:

شُمُولُ تَوْبَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُحَقِّقِينَ شُرُوطَ التَّوْبَةِ

في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، تقييدٌ لفعلِ التَّوبة بحَرْفَيْ جَرٍّ؛ إذْ قُيِّد أوَّلًا بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ قُيِّد بعدُ بحرف الجرِّ اللَّام في قوله سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ففي تقييدِه بـ﴿عَلَى﴾ دِلالةٌ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، والسّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 211.

على الوفاءِ بالوعد والقبول بالفِعْلِ؛ والإشعار باستيعاب التَّوبة لهم وشمولِهم بِهَا؛ لأنّ المقامَ مقامُ استيعابٍ وشمولٍ، ويجوزُ أن يكون في العبارةِ تضمينٌ؛ وذلك بتضمين التّوبة معنى العَطفِ، والمعنى: يَعطِفُ عليهم بقَبول تَوبَتِهم ويَعودُ برحمتِهِ عليهم[1]، وفي تقييدِهِ التَّوبةَ بـ ﴿عَلَى﴾ إعلامٌ بأنَّ ذلك شيءٌ أوجَبَهُ اللّه تعالى على نفسِهِ تفضُّلًا وتكرُّمًا منه.

ثُمّ قُيِّد فعلُ التَّوبةِ باللَّام المفيدةِ للاختصاصِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، وذلك أنَّ صدرَ الآية لمَّا كان مشعرًا بعمومِ توبةِ اللّه تعالى على العبادِ، أعقبَهُ ببيانِ أنَّ ذلك خاصٌّ لمن يعمل السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبُ قبل الموتِ، فكان هذا كالاحْتِرَاسِ.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

جاء الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ظاهرًا، مع قُرب ذِكْرِه في قوله قبلُ: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فأظهرَ الاسم الأحسنَ (اللّه) في مَوضِع الإضمار؛ للإشعار بعلَّة الحُكم؛ لأنّ الألوهيَّةَ مَنشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفات الكمال[2]، كما أنَّ في تكرُّرِ ذكرِه تلذّذًا للتَّائب المقبلِ على اللّه ﷻ.

أُلُوهِيَّةُ اللهِ تَعَالَى مَنْشَأٌ لِاتِّصَافِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ

وأشعرَ مجيءُ الوصفين بصيغة المُشتَقّ لِلْمُبَالغة ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ – مع تقدُّم قولِهِ: ﴿وَكَانَ﴾ – دوامَ اتِّصاف اللّهِ تعالَى بالعلم والحكمة وملازمتِهما لَهُ ﷻ؛ فهو المُتّصِفُ بصفات الجَمال والجَلال والكمَال.

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِاسْمَيِ اللهِ تَعَالَى: الْعَلِيمِ وَالْحَكِيمِ:

لمّا كانَ وقوعُ المعصيةِ النَّاشئُ عن استيلاء الشَّهوة والغضَب والجهالة علَى صاحبِها حاصلًا بعِلْمِ اللّهِ تعالَى، وهو سبحانَه عالمٌ بإخلاصِهم في التَّوبة؛ ناسَبَ أن يَرِدَ في ختامِ الآية اسمُهُ العليم،

الْحَكِيمُ لَا يُعَاقِبُ مَنْ تَابَ تَوْبَةً صَحِيحَةً

(1) رضا، تفسير المنار: 4/366.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156.

ثُمَّ لمّا كانَ قبولُ التَّوبةِ ممّا أوجبَه اللّٰهُ تعالى على نفسِهِ فَضلًا منه ورحمةً بالعباد لِحكمةٍ منه في هذا الإيجاب؛ ناسَبَ أن يُتبِعَ اسمَهُ العليم باسمه الحكيم، فقال سبحانه: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والحكيمُ لا يُعاقِبُ التَّائبَ[1].

سِرُّ تَوَجُّهِ النَّفْيِ إِلَى التَّوْبَةِ فِي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا قِيمَةَ لِلتَّوْبَةِ إِنْ لَـمْ يَقْبَلْهَا اللهُ تَعَالَى

قال تعالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولم يَقُل هنا: (وليستِ التّوبةُ على اللّٰهِ) كما جاء في الآية السّابقة، وذلك أنَّه ليس المُرادُ نَفيَ القَطعِ بقَبولِ تَوبَتِهم، وإنَّما المُرادُ نَفيُ وُقوعِ التَّوبةِ الصَّحيحةِ منهم، وأنَّه ليسَ مِن شأنِها أن تكونَ لهم، ولو نَفَى كونها ممَّا أوجَبَه تعالى على نفسِه لكان المعنى أنَّها غيرُ واجبةٍ لهم، ولا مَقطوعٍ بقَبولِها منهم، ولكنَّهم قد يَنالونَها[2]، فيكونُ ظاهرُ النَّفي مُتوجّهًا إلى حصولِ التَّوبة مع أنّها قد توجدُ عندَ الموت، فنَفَى وجودَ التَّوبة؛ للإشعار بأنّ التَّوبةَ وإن وُجِدَت فلا فائدةَ منها إنْ لَم يَقْبَلْهَا اللّٰهُ تعالى.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِمَّنْ أَصَرَّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ حَتَّى حَضَرَهُ الْمَوْتُ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دون الماضي (للذينَ عَمِلُوا) إشعارًا بتجدّد عَمَلِهم للسّيّئات حالًا فحالًا، وأنَّهُم مُصِرُّونَ على عَمَلِها إلى أن يَحضُرَهُمُ الموتُ[3]، فحقيقٌ بِهَؤُلَاءِ أن لا يَقْبَلَ اللّٰهُ تَعَالَى مِنْهُم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ فِي الْآيَةِ بِـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دُونَ (السُّوءِ):

عُبّرَ في هذه الآية بِـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بصيغَةِ الْجَمْعِ فقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ باعتبار تكرّر وقوعِها في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/8، البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/367.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/565.

الزَّمان المَديد[1]؛ لأَنّهم مدّوا عملَ السّيّئات إلى الموت، فأفادَ الجمعُ التَّكثيرَ؛ ترهيبًا مِن الإغراقِ في السَّيِّاتِ الذي قد يُؤدِّي بالعبدِ إلى أن لا يتوبَ أصلًا، أو يتوبَ توبةً غير مقبولةٍ عند الله تعالى، بخلاف الآية السَّابقة، فقد جاء التَّعبير بـ (السُّوءِ)؛ للإشارة إلى نوعٍ منها؛ لِمناسبة مقام التَّوبة الّذي تقِلُّ فيه السّيّئات، كما أنَّ في التَّقليل ترغيبًا في التَّوبة وتعجيلًا لها.

الْإِغْـــرَاقُ فِي السَّيِّئَاتِ مَظِنَّةُ لِخَاتِمَةِ السُّوءِ

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دُونَ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

آثر التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الّتي تفيد انتهاءَ الغاية مع التّدريج في هذا الانتهاء؛ لأنّ الفعلَ المُتعدّيَ بها الغرضُ فيهِ أَن يَنْقَضِيَ شيئًا فَشَيْئًا حتّى يأتي عليه إِلَى غايته[2]، و(إلى) ليسَت كذلك؛ لدِلَالَتِها على انتِهَاءِ الغَايَةِ مُطلَقًا؛ فأفاد التّعبيرُ بِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مُدَاوَمَتَهُم على فعل السّيّئاتِ شَيْئًا فَشَيئًا تَدْرِيجًا مِن غيرِ انقطاعٍ حتّى حَضَرَهُمُ الموتُ، وهذا إِصْرَارٌ مِنْهُمْ عَلَى عَمَلِ السُّوء وتَمَادٍ فِيهِ، فأدّتهم هذه الحالُ إلى أن فاجأَهم الموتُ وهُم مُتَلَبِّسُون بالسَّيِّئات.

التَّرْهِيبُ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالتَّرْغِيبُ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ

وفي هَذَا تَرْهِيبٌ مِنَ الْإِصْرَارِ علَى السَّيئات، وترغِيبٌ في المُبَادَرةِ إلى التَّوبَةِ؛ إِذِ المَرْءُ لا يَدْرِي مَتَى يَفْجَؤُهُ أَجَلُهُ.

سَبَبُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

عُلِّقَ الشَّرطُ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دُون (إن) في قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنَّ الأصل في وضعِ ﴿إِذَا﴾ أن تدلَّ على القَطْعِ والجزْمِ بوقوعِ مدخُولِهَا، ولمَّا كان حضورُ الموت واقعًا

الْمَوْتُ مَكْتُوبٌ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 544.

لا محالةَ؛ عُبّر بـ ﴿إِذَا﴾ جريًا على أَصلِ دلالَتِهَا؛ ولذا جاءَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ بصيغة الماضي؛ لأنَّه أقربُ إلى القَطْعِ نظرًا إلى اللَّفظ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاعِظِ الزَّاجِرَةِ عَنِ الْقَبَائِحِ

في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ذِكْرٌ لِلْمَوْتِ على طريقةِ الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ الموتُ بشخصٍ يأتي مكانًا أو شخصًا آخرَ، فيُعاينُه ويشاهدُهُ؛ بجامع المُلابَسَةِ والاجتماعِ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ بِهِ؛ لِيكونَ مَجازًا بطريق الاستعارة المكنيّةِ المُضمّنةِ قوَّةَ الدَّعوى؛ لإفادة التَّرهيب من مُفَاجَأة الموتِ بحضورِه دونَ استعدادٍ ممّا يقعُ فيه المُذْنِبُونَ مِنْ غُرُور التَّسويف.

وللإمعان في التَّخويف والتَّرهيب استُعْمِلَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ الدّالُّ على وُرُودِ المَوْتِ إِلَيْهِ، ومعاينَتِه له، ومشاهدتِه إيّاه.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الكلامُ على الْحَقِيقَة؛ بتقديرِ الفاعِلِ محذوفًا، وإقامةِ المُضَافِ إِلَيْهِ مُقَامَه، والتَّقديرُ: إذا حضرَت أحدَهم ملائكةُ الموتِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ لإفادة التَّرهيب كذلك.

وفي كِلَا الوجهين خروجٌ عن الأصلِ؛ فالأوَّلُ فيه خروجٌ عن الحقيقة - وهي الأصل - ، وفي الآخَرِ خروجٌ عنه من جهةِ دَعوَى الحذفِ.

وهما وجهانِ متآيلان، لا تعارُضَ بينَهُما في المعنَى.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ (إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ؛ تَابَ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾:

مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ التَّوْبَةِ شَرْعًا وُقُوعُهَا قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ

قال اللهُ تَعَالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ بنسبةِ التَّوبةِ إلى قولِ مُدَّعيها، ولم يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (حتّى إذا حَضَرَ أحدهُم الموتُ؛ تَابَ)؛ لإسقاط قوله وتلفّظه بالتَّوبة عن درجة الاعتبار، فلِتَجَنُّبِ تسميتِه توبةً؛ نَسَبَ التَّوبةَ إلى القول[1]، وفي ذلك

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

إشعارٌ بأنَّها توبةٌ بحسب زَعْمِ مُدَّعيها لا في حقيقة الأمْرِ؛ إذْ من شروطِ التَّوبةِ شرعًا أن تقعَ قبلَ حضورِ الموتِ العبدَ، فإنْ أوقعَهَا عِنْدَ معايَنتِهِ الموتَ لم تُقبَل توبَتُهُ.

سِرُّ الاِخْتِلَافِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾:

النَّاسُ فِي تحقيقهم التَّوْبَةَ أَصْنَافٌ

لمّا كان وقوعُ توبة المذكورين في الآيَةِ السّابقةِ حقيقةً؛ أُسنِدَتِ التَّوبةُ إليهم، فقال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، ولمّا كان الأمرُ في هذه الآيةِ متضمِّنًا دَعْوَى التَّوبةِ عندَ العِلم بالعَجز عَنِ الذَّنب؛ حُكِيَت دعواهُم في حصولِهَا، فقال تعالى" ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، أي: إنَّ قَلبَهُ لم يَنخَلِع مِنَ الذَّنب، ونَفسَهُ لم تَرغَب عنه فيكونُ تائبًا، ولو خلّي الموت عنه لرجع إلى عمل السّيّئات[1].

فَائِدَةُ عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الْمَعْدُومُ شَرْعًا كَالْمَعْدُومِ حِسًّا

لَمَّا كان قد يُتَوَهَّم أنّه لا معنى لنَفْيِ قَبُول التّوبة بالنّسبة إلى مَن لَم يَتُب، ولم يَطْلُبْها أصلًا ومات على الكفر؛ عُطِفَ هذا الصّنف على من سوَّفَ التَّوبةَ إلى حضور الموتِ مِنَ الفَسَقَةِ والكفَرَة؛ ليفيد التَّسويةَ بين حال توبتِهم في هذا الوقتِ وعدمِها؛ مُبَالغةً في عدَم الاِعْتِدَادِ بِهَا في حالِ التّوبة زمنَ حضُورِ المَوْتِ، وكأنّه قال: توبةُ هَؤُلاءِ وعَدَمُ توبَتِهم سواءٌ[2]؛ لأنَّ للتَّوبةِ شروطًا، من أخلَّ بها لم يُعتدَّ بتوبتِهِ شرعًا، وإذا كان كذلك كانت في حكمِ العدَمِ، فإنَّ المعدومَ شرعًا كالمعدومِ حسًّا.

دِلَالَةُ تَكْرَارِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ زِيَادَةِ الْحَرْفِ: دَفْعُ تَوَهُّمِ غَيْرِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ

لِتكرار النَّفي في قوله سبحانه: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ نُكتَتان:

(1) رضا، تفسير المنار: 4/367.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

إحدَاهُمَا: أفادت (لا) تأكيدَ انتِفاءِ الحُكمِ عن كُلِّ واحدٍ بعدَ نفيه بـ (ليس)، أَي: ليستِ التَّوبةُ لِمَن يتوبُ وقتَ الموت، ولا لِمَن يموتُ وهو كافرٌ، ولو لم يأتِ بـ (لا) لاحتملَ أن يكون المعنى: إنَّ التَّوبةَ ليست لكليهما حالَ كونِهما مَجْمُوعَيْنِ بل التوبةُ لأَحدهما، فلمّا دخلت (لا) تقرّرَ تأكيدُ النَّفي عن كلِّ واحدٍ منهما تَفْصِيلًا للأمر وبيانًا له، بأنّه لا تَوْبَةَ لكلِّ واحدٍ منهما.

والأخرَى: أَنَّهُ لمّا كانَ تَكرار حرفِ النَّفي في المعطوف يدلُّ على أنَّ ما بعدَ حرف النَّفي المُكرّر أدنى رتبةً ممّا قبلَه، أفادَ الكلامُ بإشعارٍ خفيٍّ أنَّ حالَ المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الّذين يموتون على الكفر[1]، ويَحْتَمل أن يكون تكرارُ حرفِ النَّفي؛ لأَنّه لمّا كان أمرُ الكافرينَ مفروغًا مِنْهُ في أَنْ لا توبةَ لَهُمْ؛ قُدِّمَ ما يقعُ الشَّكُّ في قبول توبتِهِ مِمّن يتوبُ وقتَ حضُور الموت؛ لكونِهِ أَولَى بالإعلامِ مِمَّن حُسِمَ أمرُه أن لا توبَةَ له، وهم مَن يموتون وهم كفّار.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

فَظَاعَةُ حَالِ مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ

عُبّر باسم الإشارة (أُولَئِكَ) من قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ - وهو إشارةٌ إلى الفريقين - ، للإيماءِ إلى البُعْدِ المعنويّ، ولمّا كان السّياق في بيان أَنْ لَا توبَةَ لِلْمَذْكُورينَ دلَّ معنى البُعدِ في اسم الإشارةِ على تَرَامِي حالِهم في الفَظاعة وبُعدِ منزلتِهم في السّوء[2]

بَيَانُ الْعَاقِبَةِ الْقَبِيحَةِ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ تَوْبَةً صَحِيحَةً

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **عَمَّا قَبْلُ:**

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأحدِ وجهين:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/564، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

أحدُهُمَا: أنّ اللّه تعالى لمَّا نفى قبولَ توبةِ الصِّنفين: الّذين يعملونَ السّيّئات ويتوبونَ وقتَ الموتِ، والّذين يموتونَ وهم كفّارٌ؛ أعقبَهُ بتأكيد عدم قبول توبتهم[1]، فذكرَ أنّه تعالى أَعدَّ لهم عذابًا أليمًا، فلمّا كانت هذه الجملةُ تأكيدًا لِمَا قبلَها جاءت مفصولةً، فالمؤكِّد عينُ المؤكَّدِ في المعنى، فيكون بين الجملتين كمال الاتِّصالِ.

والآخرُ: أن يكونَ الكلامُ استئنافًا بيانيًّا؛ فيكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا﴾ واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، أورثَ ذلك في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: ماذا سيكونُ حالُ أولئك يومَ القيامةِ؟ فأجاب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتِّصالِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَهُمْ﴾ عَلَى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

الْحَثُّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا

قُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول الصّريح ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لإظهارِ الاعتناء بكون العذاب الأليم مُعَدًّا لهم، ولبيان أنّه مخصّص لهم؛ زيادةً في تقريعِهم.

وفي تَخْصيصِ العذابِ الأليم بأولئك الصِّنْفَيْنِ دلالةٌ على أنَّ مَن يقبلُ اللّه تعالى توبتَه؛ فلَه النَّعيمُ المُقيمُ، وفي ضمن هذا حثٌّ وتحضيضٌ على الإقبال على التَّوبة والإسراع إليها.

سِرُّ تَنْكِيرِ (العذاب) وَتَقْيِيدِهِ بِالْوَصْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

شِدَّةُ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَعَظِيمُ إِيلَامِهِ

نُكِّرَ العذاب من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تفخيمًا له وتعظيمًا، وَوَصْفُه بالأليم تفخيمٌ آخَرُ له؛ والفرق بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

التَّفْخِيمَيْنِ: أنَّ التَّفخيمَ الأوَّل ذاتيٌّ والآخر: وصفيٌّ عرضِيٌّ[1]، فجاء التَّفخيمُ في المَوضِعين نظرًا إلى لفظ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ الّذي لا يَرِدُ إلَّا في مقام التَّعظيم والتَّفخيم، فكان الكلامُ مُطابقًا لمقتضى الحالِ، في شدَّةِ التَّرهيب والتَّخويف بذِكْرِ الإيلامِ للعذابِ.

فكأنَّ الإيلامَ تكرّرَ في الكلام؛ بذِكْرِ العذاب، وتنكيره، ووصفه بالأليم[2]، والغرضُ من المبالغة في بيان شدَّةِ عقوبة الآخرةِ، وأنّ العذابَ فيهَا يبلغُ إيجاعُه غايةَ البُلوغ[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

في هَاتين الآيتين الكريمَتَين متشابه لفظيٌّ مِن وَجْهَيْن:

أوَّلهما: بين قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والفرقُ بينَهما: أنَّ الأوّلَ إعلامٌ بأنَّ الله تعالى أوجبَ على نفسِهِ تكرُّمًا وتفضُّلًا قبولَ التَّوبة، بقرينة القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾، ووجوبُ قبولِ التّوبةِ دالٌّ على فضلِه وكرمِه وإحسانِه ﷻ، والموضع الآخَرُ: فيه إخبارٌ بأنَّ الله سبحانه سيتُوب عليهم؛ لِمجيءِ صيغةِ المضارع ﴿يَتُوبُ﴾ الدّالِّ على التَّجدّد والحدوثِ حالًا فحالًا في الحال والاستقبال[4].

والآخَرُ: بين قوله تعالى: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: 10].

فالآية الأولى فيها دِلالة على أنّ الموت أقربُ ما يكون إلى صاحبه؛ لدِلالَةِ (حَضَرَ) على الشّهود والمعاينة، فيكون مشاهدًا لملائكة الموت الّتي تتوفّاه.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/29.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/6.

وأمّا الآية الثّانية والثّالثة الّتي ورد فيها ﴿جَآءَ﴾ و﴿يَأۡتِيَ﴾ فيدلّان على قُرب الموت كذلك، ولكن ليس قربه فيهما كقرب الحضُور والمشاهدة، فقد يكون مَجِيئًا أو إتيانًا مِن غير مشاهدة ولا معاينة، فالتّعبير بالحضور أوثق لِلْوَفَاة مِن غيره وأقربُ، ولهذا قال الله تعالى في آية الأنعام: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61] بعد قولهِ: ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [الأنعام: 61] بمعنى أنّ الحضور يكون بعد المجيء.

وذهب فاضلٌ السّامرائيّ إلى أنّ الآيات الّتي فيها حضور الموت تتكلّم في الوصايا والأحكام الّتي تكون بِحُضُور الموت، وكأنّ الموتَ هو من جملة الشّهود، فالقرآن هنا لا يتحدّث عن الموتِ نَفْسِه أو أحوال النّاس في الموت، و(جاء) و(أتى) تتكلّم في أحوال الشّخص عند الموت.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْمَلُونَ) و(يَفْعَلُونَ):

جاء في الآية قولُه تعالى ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولم يقُل (يفعلونَ السّيّئات)؛ لمناسبة (يعملونَ) لنظم الآية؛ فإنّ (العملَ) يشملُ الأعمالَ الحسّيّةَ من القول باللّسان والفعل بالجوارح، والأعمال المعنويَّة الّتي تكونُ بالقلب، ولو قال (يفعلونَ) لَمَا دلَّ على هذا العموم؛ لأنّ (الفعلَ) يقتصرُ على ما يصدرُ من جوارح الإنسان، من مثلِ: الفمِ واليدِ والعينِ، ولا يشملُ القولَ باللّسان، ولا عمل القلب، كما أنَّ (العملَ) يكونُ بعلمٍ وإجادةٍ وقصدٍ؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة: 96]؛ ليشملَ قولَ اللّسان وفعلَ الجوارح وعملَ القلب، وأمّا (الفعلُ) فيكونُ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، وبعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ويكونُ من الإنسان والحيوان والجمادات[1]، وقد تناسق البيان في السّياق، للإفادة بأنَّ السّيّئات تكونُ في أقوالِهم، وأفعالِهم، وقلوبِهم، وللإشعارِ بأنّهم كانوا يعملونَ السّيّئات عن علمٍ وقصدٍ وإصرار، آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلونَ)، لأنّ العمل ممارسة حسيّة مربوطة بمقصديّة معنويّة، وذلك مناط كلّ الأعمال الشّرعيّة، الّتي فيها حركيّة ظاهرة، ولكنّها مربوطة بالنّية، متّصلة بنقاء الطّويّة، فيقال عمل الصّالحات،

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل)، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849، 8/4908.

كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، بينما الأفعال المجرّدة، وخصوصًا أفعال المعصية والهلاك تسمّى أفعالا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [الأعراف: 173]، وأحيانا يستعمل لفظ (يعمل)، في الضّدين معا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 07 ـ 08].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»